

(السالب والموجب) بين العمارة العربية والعمارة الغربية في التصميم الحضري (مقاربة أساسية)



وهذه الظاهرة قلما نجدها أو ربما معدومة في المفهوم التصميمي في العمارة التقليدية إذ أن تحليل أي مبنى يبين علاقة متوازنة بين المجموعتين الفراغيتين مع هيمنة الفراغات الرئيسية في التصميم محورا وشكلا، في حين تستعمل مجموعة الأحياء الفراغية الثانوية كإضافات وحشوات بين الأولى وتمتص أية نقلات في سبيل المحافظة على (سيادة) مجموعة الفراغات الأساسية للمبنى أو للمدينة بشكل عام. هذا أبرز ما يمكن لفظه من فروقات بين المفهومين العربي والغربي للفراغ الموجب والسالب من ناحية تشكيلية، ولا يعني ذلك أن الفروقات مقتضرة على هذه النواحي التشكيلية، إذ لا بد من انعكاسات اجتماعية وثقافية هي ناتج ومؤثرات في نفس الوقت لا بد بحثها وهي موضوع دراسة أخرى ومقال آخر.

العربية التقليدية. ونجد العكس تماما في المفهوم الغربي للفراغ السالب حيث يختص أهمية موازية للفراغ الموجب من حيث التشكيل الهندسي وأيضا من ناحية السيطرة والموقعية في المبنى أو المدينة. وكثيرا ما نجد المباني في العمارة الغربية قد تشكلت تبعاً للمرات والطرق بطريقة أحيانا ما تكون (بطريقة الغص كمربعات الحبيبة). أو في أحيان أخرى نجد الأحياء الفراغية الثانوية حسب تصنيفنا أعلاه وقد احتلت مواقع وأشكالا هندسية متميزة ومهمة أحيانا وبارزة للعيان أكثر من الأحياء الفراغية الرئيسية، فكلنا ما تحفل العمارة الغربية بالمساعد التي تصدر المراكز الرئيسية للمبنى وتصمم بطريقة ظاهرة في (بانورامية). في حين نجد القاعات الرئيسية والمدرجات وقد اخفيت تحت الأرض أو احتلت مواقعها على محاور غير رئيسية أو ثانوية.

السالب) أهمية أقل من مثيله في العمارة الغربية بالإضافة إلى تميزه ووضوحه عن مثيله في العمارة الغربية رغم أنه لا يكتسب أهمية من حيث التشكيل الهندسي وغالبا ما ينتج لاستيعاب التغيرات المفاجئة في الاتجاه أو الحركة والتي تحفل بها العمارة

العمارة الغربية التقليدية وبين العمارة الغربية التي يمكن في طبيعة التوازن بين سيطرة إحدى المجموعتين على الأخرى والأهمية التي تكتسبها ضمن التصميم. ففي المدينة العربية التقليدية بشكل عام وفي التصميم المعماري بشكل مصغر يحتل الحيز الفراغي



المنصور المدورة أو غيرها، لا (جاهزية) مسبقة في البناء والتخطيط كما هو الحال في معظم المدن الغربية. وجهت الدراسات المعنية كدراسة بسيم حكيم (المدينة العربية الإسلامية) وغيره بالإضافة إلى تقديم نماذج من المدن العربية التقليدية كتونس وغيرها إلى تفكيك عناصر المدينة العربية التقليدية ومن ثم البحث في الآلية التي تشكلت بها عناصرها المختلفة. وبالمقابل نجد دراسات مثل ليون كرير والتي تبحث في المدينة الغربية وعناصرها التي تشكلت منها. وبالرغم من وجود تشابه في العناصر المختلفة التي تشكل المدينتين من مرافق دينية وسياسية وثقافية وتجارية وسكنية، إلا أن الأليتين مختلفتان وذلك تبعاً لتصور العلاقة بين الموجب والسالب وهيمنة كل منهما في النسيج الحضري للمدينتين.

بداية نجد من المفيد أن نعيد تعريف أو تصنيف مجموعتين من الأحياء الفراغية على مستوى المبنى الواحد مثلاً وهما: أولاً الأحياء الفراغية الرئيسية وذلك مثل الغرف الرئيسية والقاعات والإقنية وغيرها، وثانياً الأحياء الفراغية الثانوية مثل الممرات والأدراج والمرافق الخدمية وغيرها. وتصميم وتشكيل أي مبنى إنما هو نتيجة التفاعل ما بين هاتين المجموعتين من الأحياء الفراغية. والاختلاف الجوهرى بين الثقافات المختلفة أو بين التصميم في

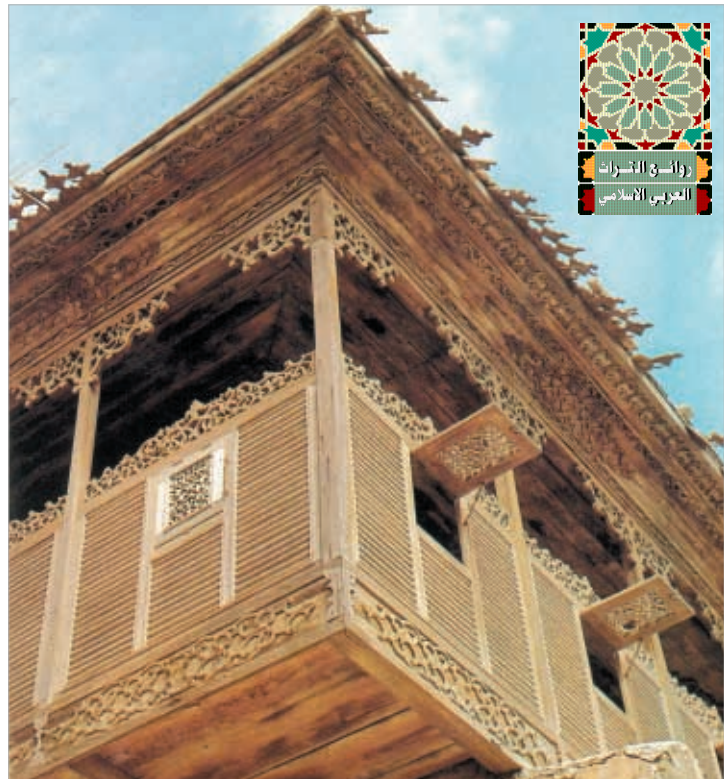


د. وليد السيد
معماري/جامعة لندن

تمثل فكرة المقارنة والحوار بين مراحل مختلفة من تاريخ الحضارة ذاتها إيا كانت، أو بين الحضارات المختلفة ركيزة مهمة في تطور الفكر الفلسفي المعماري والذي يعمل على تبسيط المعادلة التي عواملها الأولية وتفكيك الروابط بين عناصرها من أجل إدراك العلاقات وتعبير القواعد وصولاً من المقدمات إلى النتائج المنطقية مع الدحض والنفي. وهي أسبق قواعد التفكير المنهجي المنظم الذي يرفض الأخذ بالمسلّمات المتكررة كحقائق اعتماداً على (تكرارها) كعامل للتسليم بصحتها كما قدمها لنا الفيلسوف كارل بوبر. ومن هنا يعتمد هذا المقال للمقارنة بين عنصرين أساسيين في العمارة ويشكلان عماد أي نسيج حضري أو حيز فراغي معماري وهما الحيز الفراغي (الموجب) وهو الكتلة المعمارية المكونة من الحوائط والفواصل الإنشائية والتي تفصل الداخل عن الخارج وتميز العام عن الخاص، أما الثانية فهي الحيز الفراغي (السالب) وهي ببساطة عكس الأولى أو هي الشوارع والممرات والأزقة وطرق الحركة أما داخل النسيج الحضري أن كان المعنى بالتحليل والدراسة هو النسيج الحضري، أو هو الممرات والممرات الداخلية أن كان المعنى بالدراسة المبني ذاته، وهذا المقال معنى بطرح وتبني فكرة مقاربة الاختلاف الجوهرى في العلاقة بين السالب والموجب بين العمارة العربية التقليدية من ناحية وبين العمارة الغربية المعاصرة من ناحية أخرى، فما هو هذا الاختلاف؟

شبكة متعرجة من الشوارع والطرق المترجحة من التسرع إلى الأضيق انتهاء بالطرق الخاصة غير النافذة. وفي المقابل نجد أن المدينة الغربية تتبع نمطا تخطيطيا مختلفا، حيث تبدو الشوارع وكأنها أساسية في التخطيط وتفرض نفسها على حساب المباني والكتل المحيطة، إضافة إلى أنها أحيانا كثيرة ما تتبع التقسيمات الشطرنجية والخطوط المستقيمة التي تنطلق من الميادين والساحات الكبيرة وتجري بكافة الاتجاهات والزوايا ولكن بخطوط مستقيمة. وهذا الاختلاف الرئيسي في التنظيم الكلي الهيكلي للمدينتين له انعكاسات ومفاهيم مهمة في آلية وطبيعة أدراك الحيز الفراغي أو علاقته بالمحيط من فراغات الحركة كالشوارع والممرات والطرق، بالإضافة إلى آلية تشكيل النسيج العمراني الحضري

ككل بين المدينتين. ففي حسالة المدينة العربية التقليدية فقد وصفت الدراسات التي بحثت موضوع التشكيل العمراني والأليات المختلفة التي تشكلت بها المدينة (مرحلة) بنائية نمت بها المدينة مع وجود بعض الاستثناءات كما في بغداد



المشربية في العمارة التقليدية

وفي الاستعمال والتصميم المعاصر لم تخل المشاريع المعاصرة من الاجتهادات التي ابتكرت ووجهت في تقديم مفاهيم معاصرة لهذا العنصر المعماري وذلك باستخدام مواد مختلفة، وغالبا ما يعد بعض المعاصرين المعاصرين إلى النماذج التقليدية للمشربية مع القليل من التحوير، فيما يجتهد آخرون في تبسيط الشكل العام للمشربية والتلاعب بإدخال الحجر كصناعة لقاعدتها فيما يتم تصميم الواجهة بالطريقة التقليدية واستعمال المربوعة والاجتهاد في مراعاة الفتحات الإسمية الجانبية وتبسيط القبة التي غالبا ما شكلت تاج المشربية لصرف المخروط لتوفير الناحية الجمالية أو لإغراض أخرى متماخضة، ولا تخلو بعض المحاولات المعاصرة من استخدام مادة الزجاج وتقديمها كنموذج حديث يتحد جريء لفكرة الخصوصية، وعلى أية حال لا تزال المشربية واحدة من أبرز المفردات المعمارية التقليدية والمعاصرة التي يطيب للمعماريين اللجوء إليها في تصاميمهم المختلفة من سكنية وتجارية وغيرها.

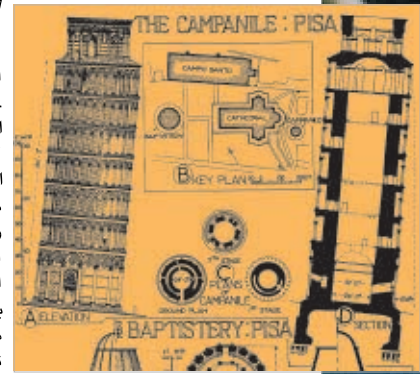
رئيسة لصناعة المشربية وكانت تتم معالجته بطلائه بالزيت ومعالجته تحت الشمس حتى يقاوم عوامل الجو من تمدد وتقلص باختلاف درجات الحرارة ليلا ونهارا وصيفا وشتاء، وما تزال هذه الأساليب التقليدية من أسرار الحرف اليدوية التي يتفرد بها أفراد قلائل على امتداد الوطن العربي وبخاصة في مدن شمال المغرب العربي كمصر والمغرب وتونس، وكذلك في سوريا حيث يغلب استخدام هذا العنصر في العمارة التي تستلهم روح التراث. ولا تقتصر هذه الاستعادة لهذا العنصر المعماري على هذه المناطق إنما تستعمل كذلك في دول الخليج العربي ماضيا وحاضرا. وتختلف المشربية حجما من اقليم لآخر ومن منطقة لآخرى، إذ تستعمل في منطقة الحجاز وجدة القديمة لتغطية واجهة كاملة أحيانا أو تمتد على أكثر من طابق، كما تتشكل من أكثر من مستوى حيث تبرز أحيانا وترتد للدخل أحيانا أخرى. كما تسمى تسميات مختلفة من منطقة لآخرى إذ بالإضافة إلى الاسم مشربية تعرف في العراق باسم الشاشيل.

المشربية كعنصر معماري هي مما غلب استعماله في العمارة التقليدية، والمشربية تشتق اسمها حسب ما تجمع عليه بعض الكتب من وظيفتها، إذ غلب استعمالها كمبريد لجرة الماء التي كانت تعلق بها، وعلى أية حال فقد استعملت المشربية لأكثر من وظيفة في العمار التقليدية، فمن هذه الوظائف والمعروفة غالبا كانت وظيفتها بصرية بحيث تسهم في حجب الانظر لمن في الخارج سواء أكان ماشيا أم منتظلا للدابة أو الجمال من سد النظر والتدخل بخصوصية القاطنين بالمبنى والبيت أو غيره. وتتشكل المشربية من مجموعة من القطع الخشبية المتماثلة والمشكلة بتشكيلات هندسية مختلفة غالبا ما تصمم بما يعرف (بالربوغة) في جوانبها الأربعة وهي ما يعقل المربع ولكن ذو دوران مختلف في كل ناحية. كذلك تحتوي المشربية على فتحات وشبابيك متعددة ومختلفة المناسيب، إذ يتم التحكم بفتحها وإغلاقها حسب الحاجة، وقد استعمل الخشب كمادة

برج بيزا المائل وقصة اعتداله

لوتارد - روما:

يعد برج بيزا واحدا من عجائب العالم القديم نظرا لشهرته حيث يميل إلى أحد جانبيه، وتعود قصة بناؤه إلى القرن الثاني عشر الميلادي وبالتحديد العام ١١٧٣م إذ تم بناء الطوابق الثلاثة الأولى فقط. وقد لاحظ المهندسون آنذاك ميل البرج حوالي ٤-٣٠ سنتيمترا وذلك بسبب طبيعة التربة المقام عليها البرج والمياه الجوفية بالمنطقة فتوقف البناء. وبعد حوالي أكثر من قرن كامل بوشر البناء مرة أخرى في العام ١٢٧٥م من قبل Giovanni di Simone الذي أضاف ثلاثة طوابق أخرى للبرج. ومع مطلع العام ١٢٨٤م اكتمل البرج بستة طوابق وبلغ ارتفاعه ٤٨ مترا. وفي ذلك الحين بلغ مقدار ميل البرج من القاعدة وحتى القمة ٩٠ سنتيمترا بالرغم من محاولات الخدع البصرية التي أجراها المعمارون لتقليل تأثير الميل من خلال إضافة الطابق النهائي والذي كان عموديا بخلاف الطوابق الستة الباقية. وعلى أية حال فلم يشكل ميل البرج أي خطر باحتمال سقوطه كما اعتقد البناء في ذلك الوقت. كل ما هنالك ان الاعتقاد كان ان البرج سيرجع ثقله على التربة تحته. ولكن مع مطلع القرن الرابع عشر بدأت التوقعات باحتمالات ميل البرج أكثر فأكثر، ولذلك فقد تم تثبيت اجراس ثقيلة في الجهة الأخرى في الطابق السادس.



وبين الأعوام ١٣٥٠-١٣٧٢م أوقف Tommaso di Andrea Pisano أعمال الطابق الأخير في نهاية الطابق السادس، وبذلك تعديلا للميلان وتقليل الثقل على الجهة التي يميل البرج باتجاهها. وفي تلك الفترة كان الميل قد وصل إلى ١٤٣ سنتيمترا. ومع احتمال الطوابق السبعة بالإضافة إلى القاعدة بلغ ارتفاع البرج ما يقارب ٥٦ مترا عن مستوى قاعدته. منذ ذلك الحين بلغ معدل الميلان حوالي مليمتر واحد كل عام. وقبل حوالي عشر سنوات مع مطلع التسعينيات أدركت الجهات الإيطالية المسؤولة خطورة الوضع واستمرار الميلان فأغلقت البرج تماما أمام الزوار والسواح. وبدأت المحاولات لتعديل الميلان أو على الأقل الحد من سرعة الميل مما بدأ يوحى بسرعة سقوطه. ومع العام الماضي أثمرت المحاولات عن تعديل البرج حوالي أربعين سنتيمترا. وقد تقدمت جهات عديدة بمحاولات وبدائل لانقاذ البرج المتهاوي والأيل للسقوط. وكان أحد الاقتراحات هو بناء برج مماثل يميل للجهة المعاكسة. وكان اقتراح آخر بتخريم البرج أكثر من عشرة آلاف ثقب لتخفيف وزنه. وتم في النهاية ومع صبر ميلانه بذلك مع استعمال تقنيات وروافع لمنع أي انهيار غير متوقع. ويتوقع الخبراء المعماريون والمهندسون الجيولوجيون ان يعيش البرج التاريخي الشهير ثلاثمائة سنة أخرى على الأقل بوضعه الحالي. واحتفل الإيطاليون مع شهر يونيو الماضي بالحفاظ على برج بيزا الشهير وأحد عجائب الدنيا السبعة. ومما يذكر ان أعمال الترميم والحفاظ قد بلغت تكلفتها أكثر من ٢٥ مليون دولار أمريكي.

